LUND UNIVERSITY

Escalating Of Disappointment In Mahfouz's Stories.

Almahfali, Mohammed

Published in:
Periodical of Mahfouz, Egypt, the Supreme Council of Culture

2014

Document Version:
Förlagets slutgiltiga version

Link to publication

Citation for published version (APA):
Almahfali, M. (2014). Escalating Of Disappointment In Mahfouz's Stories. *Periodical of Mahfouz, Egypt, the Supreme Council of Culture*, *7*, 39. Article 3.

Total number of authors:
1

General rights
Unless other specific re-use rights are stated the following general rights apply:
Copyright and moral rights for the publications made accessible in the public portal are retained by the authors and/or other copyright owners and it is a condition of accessing publications that users recognise and abide by the legal requirements associated with these rights.
• Users may download and print one copy of any publication from the public portal for the purpose of private study or research.
• You may not further distribute the material or use it for any profit-making activity or commercial gain
• You may freely distribute the URL identifying the publication in the public portal

Read more about Creative commons licenses: https://creativecommons.org/licenses/

Take down policy
If you believe that this document breaches copyright please contact us providing details, and we will remove access to the work immediately and investigate your claim.

LUND UNIVERSITY

PO Box 117
221 00 Lund
+46 46-222 00 00

المجلس الأعلى للثقافة
و
مركز نجيب محفوظ

دورية نجيب محفوظ

العدد السابع

ديسمبر ٢٠١٤

محفوظ خارج الرواية

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠١٤

دورية نجيب محفوظ

رئيس التحرير

حسين حمودة

سكرتارية التحرير

رحاب لؤى

الإشراف الفني و تصميم الغلاف

أحمد محمود

المراجعة اللغوية

آمال الديب

لوحة الغلاف

الفنانة: نيفين جندى

مستشار التحرير

جابر عصفور

هيئة مستشاري التحرير

أمانى فؤاد

خيرى دومة

محمود الضبع

هالة فؤاد

يسرى عبد اللّه

القاهرة، المجلس الأعلي للثقافة و مركز نجيب محفوظ، العدد السابع، ديسمبر ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٩ / ٢٣٤٣٨

الترقيم الدولى : ٠ – ٩٨١ – ٩٧٧ – ٤٣٧

المراسلات :

«دورية نجيب محفوظ» – المجلس الأعلى للثقافة– القاهرة– شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة

ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ ـ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel: 27352396 Fax 27358084

أو الكتابة على الإيميل :

mahfouz1911@gmail.com

تنويه :

- ترتيب الموضوعات يخضع لاعتبارات فنية.
- المواد المنشورة بالدورية تعبر عن آراء أصحابها.

فأثار اهتمامى لدرجة لم أتوقعها، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح. قال:

- لم يكن من مفر من هذا التحذير، ثم ادخل فى الموضوع رأسًا!

فقلت واهتمامى يتصاعد:

- أدخل.

فكوَّر قبضته الضخمة وتساءل:

- آنست منك رغبة فى العمل؟

فلمحت أول بصيص نور، وسألته فى دهشة:

- كيف عرفت ذلك؟!

- من متابعتى للمناقشات!"[6] فلم يذكر الدوافع التى تستدعى من الذات كل هذا الحماس ليضحى بنفسه من أجلها. لقد ظلت الدوافع فى خلفية الحدث الرئيس، ومن ثم تتصاعد تلك الأحداث بالتوازى مع تصاعد السرد، وتنظيمه، وعلى الرغم من أن ظاهر النص يتضمن الصراع مع السلطة وأدواتها القمعية، فإن المضمون يتسع ليشمل سلطة عليا، وأن الصراع هو صراع وجود. فالذات أو الشخصيات التى تتحمل هذه المسؤولية تتخذ من الترميز سمات لها؛ ليعطى ذلك فسحة معينة تجعلها تسقط على أى فرد فى هذا الكون؛ ليتسق ذلك مع المهمة التى تقع على عاتق القائمين على هذه المهمة التغييرية.

ينساق القارئ مع رغبة الشخصيات وراء فكرة تغيير العالم "**هذا ما تطوعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة فى تغيير الكون**"[7] ويتدرج معه من المرحلة الأولى التى تكون فيها الذات مع المجموعة (أ) وفى إطار هذه المرحلة نجد أن الذات ترتكب الكثير من المخالفات التى تعرضها للعقوبة، وهو ما يعنى بصورة ما الإحساس بالخيبة بعدم الوصول إلى حالة الثورى النموذجية التى يمكنها أن تساعد على الترقى من هذه المجموعة، حتى الوصول إلى السيد الكبير الذى يمثل رأس هذا التنظيم، والذى لا يمكن الوصول إليه إلا بالجد والعمل والإخلاص. وقد كان العمل شاقًا فى هذه المجموعة وأكثر صرامة والتزامًا ودقة، وهذا ما قد يسوغ حصول الخيبة لدى الذات، ومع ذلك تنتقل إلى الأسرة (ب) ومع أول لحظة تعارف على أعضاء هذه الأسرة ورئيسها وطبيعة عملها يكتشف أن المهمة مناقضة تمامًا شكلاً ومضمونًا، إذ كان على أعضاء هذه المجموعة أن يزرعوا الجمال والحب والغناء، فقد كانت مهمتهم السابقة التصدى للوجه القبيح والانهيال عليه باللكمات، أما مهمتهم الجديدة فهى التغنى بالوجه الجميل المنشود، فكانت مهمتهم الجديدة اللحن والغناء[8]، وما هو فى ظاهر هذا التصاعد بأنه تصاعد إيجابى باتجاه الانتقال من حالة مواجهة القبح إلى حالة صنع الجمال إلا أن المهمة بدت وكأنها أكثر صعوبة من سابقتها فيتعمق لدى الذات الإحساس بالخيبة، إذ تشعر بأن هذا العمل الجديد فى ظاهره الترف والجمال، ولكنه فى داخله أكثر تعقيدًا، فإذا كان يسهل على الذات محاربة القبح ويسهل عليها أكثر محاربة الجمال إلا أن مهمة صنع الجمال مهمة عسيرة جدًا ولا يمكن صنعها إلا بصعوبة بالغة. وحين تنتقل الذات إلى الأسرة (ج) تزيد مساحة الحرية فى اتخاذ القرار والإبداع فيه، فيبدو هذا التصاعد إيجابيًا، ولكن هو الآخر يسجل خيبة الذات بتحمل المزيد من الشعور بالمسؤولية، فالاتجاه نحو الحرية بصورة كبيرة يزيد من مشاق المسؤولية فيقول: "**ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصورت**"[9]، لقد تحققت خيبة الذات هنا ليس من انعدام الحرية، بل وجودها لديها بشكل

غير متوقع وهذه الحرية المفتوحة جعلتها كانعدامها تمامًا، بل وأشد وطأة.

وبصورة شاملة حين تجتمع الأسر الثلاث يحصل لها التفكُّك والانهيار وتقبض عليهم الشرطة ويهرب الآخرون، فتكون الخيبة هنا فى اتحاد هذا التنظيم والتئام شمل الأسر، ويتحقق الفشل من حيث كان فى ظاهره النجاح.

من هذه المجموعات الثلاث: (أ)، و(ب)، و(ج)، تبدو خيبة الذات فى المجموعة الأولى من الصراع بين الذات ورغباتها من جهة وبين تلك الرغبات والمجتمع من جهة أخرى، فى حين تتجسد فى المجموعة الثانية الصراع بين القبح والجمال، فيتدرج الأمر من سهولة صنع القبح إلى صعوبة محاربته، إلى مهمة صنع الجمال التى تكون أكثر صعوبة. أما المجموعة الأخيرة، فيتجسد فيها الصراع بين الحرية والتبعية، فإذا كانت الحرية قيمة مرتبطة بوجود الإنسان فإن الحاجة لنوع من التبعية التنظيمية ضرورة لوجود الذات كجزء من منظومة المجتمع والعالم.

وفى نص السيد (س) تأخذ الخيبة بعدها العام فى سياق حياة الذات التى يبدأها النص من حالة سابقة للظهور المادى فى هذه الحياة، فيبدأ النص تسلسل حالات الخيبة منذ الوجود غير المدرك، فتحاول الذات تذكر الماضى قبل الولادة، وهى محاولة تتغيا إيجاد تفسير معين لحالة الألم التى تعيشها اللحظة؛ بما يبين أن تلك الذات تعيش الخيبة الآنية وترغب فى البحث عن تفسير لهذه الخيبة: "**ولو سلمت برأيهم لتعذر على معرفة الخطيئة التى ارتكبتها فى زمن سحيق، والتى يكفر عنها شخصى الراهن بمعاناته المستمرة التى لا يجد لها تفسيرًا**"[10] إن الحياة تمثل بالنسبة للذات صدمة حقيقية وحالة خيبة فقد: "**أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل، والزمن عبئًا لا يستهان به**"[11] فقد جاءت الخيبة هنا من ثلاثة محاور: الأول يتمثل بأن الغذاء بوصفه ممثلاً لمختلف حاجات الإنسان قد صار همًا حقيقيًا على الإنسان فى هذا الوجود أن يسعى من أجله، بعد أن كان فى الحالة الأولى فى رحم الأم يتغذى دون أن يكون لديه هذا الخوف من الفقدان فى لحظة ما، والمحور الثانى يتمثل فى خيبة إدراك المكان اللامتناهى بعد أن كان محصورًا فى جدار الرحم منغلقًا على عالمه الخاص، فقد تحول من ملك وحيد لعالمه إلى عنصر لا يكاد يذكر فى هذا الوجود غير المحدود، ثم معضلة فهم الزمن وإدراكه، وهذه المحاور الثلاثة تمثل خيبة وجودية خالصة بين عالم الذات فى مرحلة الوجود السابق للحياة ومرحلة وجودها فى هذا العالم.

ثم تأتى بعد ذلك حالة من الأمان النسبى أو لنقل النجاح النسبى فى التصاعد، ويتمثل لذلك فى حضن الأم ودفئه: "**ويمر دهر حتى ألف فى الأقمطة وكأنما رجعت إلى موطنى المنسى. وينسكب الدفء فىَّ، ويحتوينى حضن ستبقى ذكراه معى طويلاً. وتمر فترة يتذكرها الحالمون جنة وارفة متناسين متاعبها وأشجانها، من افتقاد الأمان والشبع أحيانًا، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائمًا وغزو أمراض عدة تفسد مذاق الحياة**"[12] إلا أن هذا الأمان ما هو إلا حالة مؤقتة سرعان ما تتكشف الكثير من النكسات المتلاحقة بدءًا من حضور المنافس فى الرعاية والاهتمام التى يتلقاها المولود الجديد، ثم مع زيادة أعباء الحياة وتراكمها حتى الوصول أخيرًا إلى مرحلة الموت، وللمفارقة فإن هذه الحالة الختامية لوجود الذات تمثل حالة من التوازن الإيجابى إذ تعبر عن ذلك: "**وانفلت من الجسد إلى الحقيقة المطلقة،**

وتجلى لى ما قبل الميلاد وعبورى بالدنيا والمستقر الأخير منظر واحد جامع متكامل كالوردة الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سر فتملت بالاستنارة والسعادة الحقيقية"[13] وهكذا يتجسد فى هذا النص تصاعد الخيبة بدءًا من حالة سابقة لتمظهر الذات فى هذا الوجود وحتى الرحيل إلى عالم آخر، وإن بدت فى الأخير من منظور الذات الساردة حالة إيجابية إلا أنها مشبعة بالمفارقة التى ترى فى الموت قيمة إيجابية، فى حين أنها تمثل الفناء فى مقابل هذا الوجود الملىء بالحياة.

الخيبة الأيديولوجية:

يمكن لأغلب النصوص فى هذه المجموعة القصصية أن تجسد بصورة ما تصاعد الخيبة الأيديولوجية، بيد أن هناك نصوصًا يهيمن عليها هذا النوع من الخيبة، ويمكن تمثيل ذلك فى نصى: "المسخ والوحش"، و"الفأر النرويجى".

تبدأ قصة "المسخ والوحش" بحكاية افتتاحية للشاطر حسن الذى التقى الخضر فأخبره عن المسوخ التى حولها الوحش إلى حجارة ولا سبيل إلى تحريرها وإعادتها إلى هيئتها الآدمية إلا بقتل الوحش، وهو بالفعل ما صنعه الشاطر حسن تنفيذا لتوصية الخضر، فبعد أن يذكر الراوى موجز هذه الحكاية يفتتح القصة بلقاء شخصية غامضة تمزج النبيذ بالليمون، ثم ينسل فى محادثته ليختم الحوار القصير بحديث الشخصية الغامضة للراوى عن المسوخ ذوى المسوخ ولا نجاة لهم إلا بقتل الوحش، وتنصرف هذه الشخصية الغامضة فتستشعر الذات فى نفسها مهمة الشاطر حسن، ولكن انطلاقًا من شروط عصره، كان عليه أن يفهم ما المقصود بالمسوخ ومسوخ المسوخ والوحش، وهنا يتنقل من جهة إلى أخرى بحثًا عن تحليلها لكى يكمل مهمته التى يرى بأن الخضر قد كلفه بها، ومع هذا التنقل تبدأ مسيرة الخيبة الأيديولوجية لدى الذات التى تأتى من خيبة التفسير وصعوبة التطبيق لمضمون الوصية، بيد أن الخيبة الافتتاحية فى هذا النص تتمثل بانفراد الذات بهذا الهم، بعيدًا عن اهتمام المجتمع الغارف فى النمطية وهمومه اليومية دون النظر بعيدًا فى التاريخ لتحليله ولا المستقبل لاستدراك السقوط فى حفره: "**وألقيت نظرة على من حولى من السكارى فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة ويناقشونها بندًا بندًا بغير ملل. الأسعار، التهريب، الاستيلاء على أراضى الدولة، الثروات غير المشروعة، سوء المعاملة، الطوابير، الديون، النفوذ الأجنبى، القذارة، المجارى، المذابح، وغيره مما لا يحيط به حصر، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ أو الوحش**"[14] إن كل هذه المظاهر المرضية فى المجتمع تعد أعراضًا للمرض وليست المرض نفسه، وهو ما يعنى وجود خلل ما فى الأصل، تحاول الذات الوصول إلى تفسيره، وبعد هذا الإحساس تتنقل من جهة إلى أخرى بحثًا عن تفسير للمسوخ ومسوخ المسوخ: من أجل قتل الوحش وتحريرهم، فيذهب أولاً إلى السيد "م" ممثل الحزب الوطنى الديمقراطى الذى يخبره بأن المسوخ نوعان: إما الملحدين ومسوخ المسوخ أتباعهم فيكون الوحش هنا هو الشيوعية أو الاتحاد السوفييتى أو التيار الدينى المتطرف ومسوخ المسوخ أتباعهم ويكون الوحش هنا هو إيران وليبيا، وتأتى أول خيبة للذات هنا من استحالة قتل الاتحاد السوفييتى وليبيا وإيران: "**وتركته شاكرا وبى غصة من خيبة الأمل إذ مهما تكن ثقتى فى نفسى ورسالتى فمن أين لى بالقوة التى أقتل بها الاتحاد السوفييتى وإيران وليبيا؟**"[15] إن الخيبة هنا أمام الذات من التلاعب فى تصوير عدو وهمى يتم تحميله مختلف الاختلالات التى تقع على المجتمع نتيجة لخلل فى النظام

السياسى، فيتم صناعة عدو وهمى يلقى عليه بمختلف الأخطاء، ولكن الذات وإن استشعرت صعوبة قتل هذا الوحش، فإنها لم تكتف بهذا التفسير المؤدلج، فانتقلت للبحث عن تفسير آخر عند السيد "أ" من حزب التجمع الذى أخبره بأن المسوخ هم عملاء الغرب ومسوخ المسوخ هم الانتهازيون المتحولون عند كل حكومة، أما الوحش فهو الإمبريالية العالمية المتمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهنا تعبر الذات عن صدمتها: "**ثم غادرت موقنًا بأن الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر على من قتل ذلك الوحش الجديد**"[16] فقد أصبحت الخيبة أكثر قساوة من هذا التفسير الأيديولوجى المناقض للتفسير السابق، فتناقض المشاريع السياسية فى المجتمع يجر معه هذه التناقضات التى تظلل المجتمع وتصليه بصراعاتها العبثية؛ فتجعل الذات تشعر بهذه الخيبات المتلاحقة باحثة عن التفسير الحقيقى للخلل الأساسى فى المجتمع. بعد ذلك تنتقل بحثًا عن تفسير مقنع فقادتها هذه الرغبة إلى متطرف دينى ليفيد بأن المسوخ هم حكام البلاد الإسلامية ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين. أما الوحش فهو نظام الحكم فى البلاد الإسلامية، وهنا يزيد الأمر تعقيدًا وتداخلاً فيتم التعبير عن هذا التعقيد بالقول: "**خيل إلى أن القضاء على الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة معًا أيسر على من الوحش الجديد**"[17] إن هذه التيارات السياسية والسياسية الدينية تربط بين الدين والسياسة فكانت تفسيراتهم متضمنة ذلك، وواضعة للحلول من خلال هذا الربط العجيب، بيد أن الخيبة تصاعدت من الأبعد إلى الأقرب وكانت الخيبة أشد حين وصلت لتفسير المتطرف الدينى. ومع محاولة البحث عن تفسيرات جديدة تنتقل الذات إلى فئات أخرى، ممثل الوفد ثم المثقفين ثم المتصوفة، فيخبره الأستاذ "ن" من الوفد بأن المسوخ هم أعداء الوفد ولا أتباع لهم لأن البلاد وفدية 100%، وأما الوحش فهو النظام الديكتاتورى، فيبدو هذا الوحش أيسر من الوحوش السابقة، ولكن بالمقارنة بقدرات الذات فهو صعب المنال فينتقل إلى سى أحمد ممثل المثقفين فيخبره بأن المسوخ هم الجهلة ومسوخ المسوخ هم أتباعهم الأجهل منهم، أما الوحش فهو الجهل، فيستسهل هذا الوحش ولكنه لا يعرف كيف يجسده فى شىء يسهل عليه قتله؛ مما يجعله ينتقل إلى العارف بالله الشيخ "ص" فيخبره بأن المسوخ هم عشاق هذه الدنيا الفانية، وأما مسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف، وأما الوحش فهو النفس الضالة، فيبدو هذا الوحش الأيسر للقتل برغم صعوبته. لقد تدرجت الذات فى البحث عن تفسير يناسب قوتها من الأبعد إلى الأقرب وكانت كلما انتقلت من جهة إلى أخرى فتشت له تلك الجهة عن عدو بدءًا من الاتحاد السوفييتى وأمريكا وانتهاء بالنفس التى توقن أخيرًا بأنها الأيسر على المحاربة، ولكن حين يعود إلى مكانه فى الخمارة ويقابله الشيخ ذو العباءة الأرجوانية نجده يعرض عنه فتنتهى القصة بتسجيل هذه الخيبة: "**وفى ذات ليلة وأنا أتمل بنشوتى فى مجلسى المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانية إلى جانبى وهو يمزج النبيذ بالليمون! وهتفت:**

يا للسعادة! لقد جئت أخيرًا..

ولكنه لم يعرنى أدنى اهتمام فقلت:

لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله..

وأصر على تجاهلى تمامًا، ولم يلقِ علىَّ نظرة واحدة ولم تهب على من ناحيته نسمة أنس أو مودة"[18] لقد تصاعدت خيبة الذات الأيديولوجية بدءًا من ذلك التفسير السياسى الذى يوظف الدين

لصالحه، حتى ذلك التفسير الدينى الذى يخلط معه السياسى، وصولاً إلى التفسير الروحى الذى يحاول الهروب من الواقع والدخول فى أعماق الذات، ولكن مع ذلك لا يصل إلى تفسير مقنع ليحقق به النجاح الموازى للحكاية التاريخية المجسدة فى قتل الوحش من قبل الشاطر حسن وتحرير المسوخ. إن الذات الآن تكابد همًا حقيقيًا ومعقدًا يأتى من هذه التفسيرات الأيديولوجية المتصارعة والمتناقضة التى تطحن الذات داخل وعاء المجتمع.

وفى قصة الفأر النرويجى[19] تبدأ أحداث القصة بالاستعداد للفأر النرويجى الذى يشكل الخطر الداهم على المجتمع، فتتضافر جهود الجميع لمواجهة هذا الخطر القادم من المجهول، وتزيد الاستعدادات بزيادة التعبئة العامة من قبل السلطات ووجهاء الحارات، وكلما مر يوم زاد الترقب والانتظار لهذا الخطر القادم. ولكن تتمثل الخيبة فى عدم ظهوره، وتتشكل الخيبة فى ختام النص بالالتباس بين الفأر الذى يستعدون لمواجهته والمفتش، إذ يكتشف الرجل وزوجته بأن هذا المفتش يقوم بدور الفأر النرويجى نفسه الذى تدعى السلطات وجيش لمحاربته، لقد خسر الناس الكثير من الأشياء وخسروا الوقت والجهد الكثير لمواجهة عدو وهمى وفى الأخير يكتشفون أن السلطات نفسها تمارس سلوك ذلك العدو المزعوم، فتتكرس خيبة مضاعفة، الأولى حين تنطلى عليهم هذه الكذبة الرسمية، والأخرى حين يقعون ضحية لعمل هذه السلطات التى تمارس مهنة العدو المتوهم.

ثالثًا- الخيبة الاجتماعية:

يمكن للخيبة الاجتماعية أن تتشكل هى الأخرى فى عدد من الخيبات المختلفة، فلا يمكن فصل الدلالة الاجتماعية عن التشكلات الأخرى فى النصوص، ولكن يمكن متابعة تلك النصوص ذات الهيمنة الاجتماعية فى أحداثها، ومنها نصى: ممر البستان، وعندما يأتى الرخاء. ففى نص ممر البستان، تتابع الأحداث المحصورة بين ثلاث شخصيات، المرأة والذات التى تروى الأحداث، ومحور الحدث، وهو الشخصية الغامضة التى كان ينبغى للذات أن يأتى بها إلى البستان، وقد تتابع النص بتصاعده عبر ما يمكن أن يسمى بالمحاولة والخطأ، إذ تطلب المرأة من الذات أن يصطاد ذلك الرجل بكلام معين ليأتى إلى هذا البستان، وهو المكان الذى توجد فيه هذه المرأة، وبعد هذا الإتيان يمكن أن تدفعه لحصول تغييرات مختلفة قد تنعكس عليها وعلى الذات وربما على مجتمع القصة بشكل عام، إذ تتكثف الرغبة من هذه الحركة فى مفهوم البحث عن الأمان، فتحاول الذات التقرب من تلك الشخصية، لكنه فى كل مرة يفشل فيعود إلى المرأة خائبًا، وفى كل مرة تعدل له المرأة طريقة اصطياد تلك الشخصية فيعيد المحاولة مرة أخرى. ففى المرة الأولى يقول الراوى: "**فدنوت منه وأنا أقول:**

- عندى ما يسر العين وتشتهى النفس.

فلوَّح بعصاه حتى تقهقرت مذعورًا وقال بامتعاض وسخرية:

ماذا قلت يا صاحب السمو؟!

ورجعت إلى دارى وأنا ألملم نفسى المبعثرة وأغوص فى أعماق خيبة جامعة"[20].

فهذه الخيبة يعود بها إلى المرأة فتصحح له خطأه المتمثل فى تقديم الطعم لتلك الشخصية من خلال صوته الذى خاطبه به كما اعتاد أن يخاطب مرؤوسيه، فلم يقدم لهذا المقام خطابه الخاص الذى يمكن من خلاله أن يستدرجه إلى تلك المرأة المنتظرة

فى البستان من أجل تغيير هذا الواقع الاجتماعى الذى تعيشه الذات.

ومرة أخرى يعود للرجل فيقول له: "**عندى شىء طيب فى مكان محترم وآمن.**

فمضى دون اكتراث بى، ولما هممت بإسماعه صوتى من جديد نهرنى قائلاً:

الأجدر أن تدعو الناس للمآتم!

وسرعان ما فطنت إلى زلتى، بل الحق أننى حنقت على نفسى لغلبة المرارة على صوتى"[21]

وتكون الخيبة هذه المرة قادمة من الصوت أيضًا وليس من مضمونه، فنغمة الصوت هى من قدمت هذا الفشل، فإذا كان الفشل فى المرة الأولى قادمًا من رسمية الخطاب، فإنه هذه المرة قادم من تنغيم الخطاب الذى يحمل الحزن والانكسار، ويجعل الذات تفشل فى تحقيق الأمر الذى قد ينتج لها الأمان كما ترغب.

وحين يحاول فى المرة الثالثة الاستفادة من خطأيه السابقين يفشل للمرة الثالثة، لا بسبب مضمون الصوت ولا شكله ولكن لوقوعه فى أسر المحاولات أساسًا، وهى المحاولات التى تتناقض فى الأصل بين شكل المجتمع ومضمونه، الشكل الموحى بالاحترام والتقدير، والمضمون الموحى بعكسه. وكما ينشد الأمان من خلال هذه الحركة المريبة والغريبة، فإن الوقوع فى الخيبة مضاعفًا، الخيبة فى عدم تنفيذ ما يراد سرديًا، والإتيان بالرجل إلى عطفة السنبلة، والخيبة فى تحقيق الأمان المنشود. وكما هى أغلب الخيبات المرصودة فى قصص نجيب محفوظ، وحين تكون الذات على مقربة من تحقيق الغاية التى تمر القصة باتجاهها، نرى مرارة الخيبة تسود ختام النص "**لاح لى الأمان بوجهه المشرق وراء غبش الظلام. لم يبق إلا التحلى بالصبر. وها هو التلهف يحيل الصبر عذابًا حقيقيًا. ومرت الأيام. وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراسًا، وهمى الوحيد هو الانتظار**"[22] وهكذا حين تلوح فى الأفق إزاحة خيبة معينة تلوح خيبة أخرى، فحين يلوح فى الأفق الأمان، يسود هم الانتظار، فمن خيبة اجتماعية إلى خيبة أخرى، تتوالى وتتصاعد حتى تسد أفق النص، ولكنها تفتحه سرديًا على آفاق مختلفة، فيتناسل الخط السردى من رحم الخيبات المتلاحقة والمتصاعدة.

وفى نص "عندما يأتى الرخاء"[23] تتصاعد حكاية رجل زوجه أبوه مبكرًا فأنجب ولدا زوجه أبوه هو الآخر مبكرًا، وكان الجد قد خلف بيتًا وأراضى لكنها كلها موقوفة، ولا يستطيع الابن الانتفاع منها ولا من هذه الأموال، فتتصاعد فى هذا النص الخيبة والأمل يترافقان بشكل عجيب فى مختلف زوايا النص، كما تعيش هذه الشخصية حياة الغنى الفقير فى الوقت نفسه، فهو المالك لكل تلك الأراضى والأموال ولكنه لا يستطيع الانتفاع بها. ومع تدرج النص فى خيبات الذات المتلاحقة، باحثًا عن فتات ليسد به رمقة، وفى الوقت نفسه لا ييأس من المتابعة والملاحقة، "**يتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريح الفراش بصفة نهائية. ويسرح بصره فى الغيب طويلاً، طويلاً. طويلاً، ثم يتمتم: حكمتك يا رب..**"[24] وهذه الخيبة الاجتماعية تشبه إلى حد بعيد بعض الخيبات السابقة حين تصل الذات إلى رغبتها، ولكن يكون الأوان قد فات على أن تسد مواضع الرغبة فى عالم الذات، وبهذا تكون الخيبة مؤلمة، لأنه مع غياب هذا المرغوب يكون الأمل موجودًا فى حصوله بصورة نموذجية فى يوم ما، وهذا الأمل يسد الكثير من الفراغ والعجز فى النفس الإنسانية، ولكن حين

يحصل المرغوب ونكون قد فقدنا شروط تحقيقه فإن الخيبة قاتلة، لأنا حصلنا على الموضوع وشروط تحقيق الرغبة قد انتهت، ولم يعد هناك من أمل بتحقيقه بشكل أفضل.

التنظيم العام لتصاعد الخيبة:

إذا كانت دراسة تصاعد الخيبة فى الجزء الأول من هذه القراءة قد اعتمد على الجانب المضمونى فيها، فإنها هنا سوف ترصد طريقة تشكيل هذا التصاعد، فمن خلال القراءة يتبين أن التنظيم يتخذ شكلين رئيسين: الشكل الأول هو البسيط، والآخر معقد.

ففى الشكل البسيط، قد تأتى الخيبة دفعة واحدة كما هى فى قصة البستانى الذى ظل يحلم ببيت بحديقة فيعمل من أجل هذا الحلم طويلاً، ولكنه فى الأخير ينصدم بخيبة عدم تحقق شىء مما يعمل من أجله، فيعالج هذه الخيبة بتحويل فى مسارها من تحققها واقعًا إلى تحققها حلمًا، ومن ثم تعديل فى الرغبة بصورة عامة من الرغبة فى بناء بيت وحديقة، إلى تعليم فنون الاعتناء بالحدائق. وقد تأتى الخيبة البسيطة أيضًا عبر تصاعد الخيبات المتلاحقة واحدة إثر الأخرى كما تبين فى قصة المسخ والوحش، إذ تتابع الذات محاولاتها وخيباتها من مرحلة إلى أخرى حتى آخر النص.

أما التنظيم المعقد فإن هناك تصاعدًا للخيبة عبر مراحل، ثم لكل مرحلة خيبات داخلية، وقد تبين ذلك مثلاً فى قصة "التنظيم السرى"، فحين كانت الذات تنتقل من حالة إلى أخرى، يكون داخل المرحلة الواحدة تصاعد داخلى للخيبة فيها.

وقد تكون الخيبة منظورة إما من منظور داخلى أو من منظور خارجى، فالرصد لتصاعد الخيبة من منظور داخلى كما هو فى قصة "السيد (س)" الذى يرصد لخيباته الذاتية الداخلية التى لا يتعمق فيها فى ذاته الداخلية فحسب، بل يعود بها إلى مراحل سحيقة ما قبل ميلاده أو ما بعد موته، فيعود لأصول خيباته ما قبل الميلاد ويتتبعها حتى بعد الموت، وهو منظور عميق فى الذات الإنسانية تتابعها من الداخل.

وقد تكون الخيبة مرصودة من خارجها كما فى قصة "عندما يأتى الرخاء" الذى يتابع خيبات تلك الذات فى احتياجاتها الذاتية وعلاقاتها الاجتماعية، ولكن مع الاحتفاظ بتلك المسافة التى لا تسمح بالغوص فى أعماق الذات.

وهناك ملاحظة تكاد تكون عامة لتصاعد الخيبة فى هذه النصوص، وهى أنه كلما تحولت الذات إلى مرحلة لاحقة ترى فى المرحلة السابقة أنها أفضل؛ مما يولد الإحساس العميق بخيبة الأمل، فخيبة الذات لا تظهر فقط من سوء تحقق رغبتها، بل من رؤيتها لحالتها السابقة أحسن حالاً مما يأتى، فالتحول للمستقبل والتصاعد باتجاهه لا يولد فى الغالب إلا أسوأ مما مضى، فالماضى على الرغم من سوئه يظل أفضل حالاً مما يأتى.

خيبة من؟

إنه السؤال الذى يغلف هذه النصوص التى تجسد حركة الخيبة فى تفاصيلها وبتشكلات مختلفة، هل هى خيبة المؤلف أو القارئ؟ وهل هى خيبة الراوى أو المروى له؟ وعلى الرغم من ترابط هذا الجوانب الممثلة لأطراف الخطاب داخل العمل فإنها تتجسد أحيانًا فى نصوص معينة لصالح طرف محدد، يكون هذا الطرف هو الحامل الرئيس لهذه الخيبة.

فمثلاً فى "قصة السيد (س)" تتجلى خيبة القارئ

الضمنى الذى يعطيه الرمز (س) بعدًا عامًا ليكون أى إنسان هو الحامل لتلك الخيبة. ومع أن الراوى هو الذى يتحدث عن نفسه، فإن هذا الترميز يبعد شبهة النقل الخاص لحالة ذاتية معينة ويعطيها البعد الإنسانى العام، ليكون هنا القارئ هو المسؤول عن تجسيد هذا الرمز، وهو بالتالى المجسد للخيبة حين يضع نفسه مكان الرمز (س) هذا من ناحية، يعضد ذلك من ناحية أخرى، أن مجمل الخيبات التى تتصاعد داخل هذا النص لا تتعلق بمسيرة نمطية تحاكى العالم الاجتماعى، بل تغرق فى أبعاد فلسفية ووجودية عميق تغرق فى تفاصيل الذات الإنسانية وتساؤلاتها الداخلية والوجدانية العميقة.

من جهة مقابلة يحكى راوى قصة "الفأر النرويجى" خيبته النهائية التى لا نلمح معها أثرًا لهذا الفأر على الرغم من هذه الاستعدادات المكثفة لمواجهته، ولكن تكون خيبة المؤلف الضمنى فى ختام النص، حين تترافق هذه الخيبة مع خيبة الراوى الذى يسرد الأحداث. فى ختام النص لا يلمح القارئ أثرًا للفأر، ولكنه يستمع للراوى وهو يقدم حالة المفتش من قبل السلطة وهو يتصرف بسلوك الفأر، ثم يلمح القارئ تلك الخيبة على الراوى الذى هو هنا أداة بيد المؤلف. فتكون الخيبة أولاً هنا خيبة المؤلف الضمنى يتبعها الراوى بوصفه أداة بيد المؤلف، ثم تصل أخيرًا لتكون خيبة القارئ.

فى ختام هذه المقاربة لمجموعة (التنظيم السرى) يتبين أن الخيبة ظاهرة فى هذه المجموعة القصصية، انتظمت بتشكلاتها المختلفة، وانتقلت من طور الحالة الشعورية الداخلية إلى طور التجلى الفعلى داخل النصوص، ومن هذا التحول بين المجرد والمحسوس، اتخذت لنفسها معالجات مختلفة فى تشكيلها، وبتدرج يبدأ من الحالة الأولية حتى يصل إلى مرحلة الذروة، ومن البسيط إلى المعقد، ومن الخاص إلى العام، فيكون لتصاعد الخيبة فعل رئيس لتصاعد السرد.

الهوامش:

(1) - ينظر: عبد الرحيم الكردى: البنية السردية للقصة القصيرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط/3، 2005م، ص: 107.
(2) – ينظر: المرجع نفسه، ص: 18.
(3) - ينظر: المرتضى الزبيدى: تاج العروس، مادة خيب.
(4) - نجيب محفوظ: التنظيم السرى، دار الشروق، القاهرة، ط/، 2008م.
(5) - ينظر: إيخنباوم: حول نظرية النثر، ضمن نظرية المنهج الشكلى، نصوص الشكلانيين الروس، تأليف: مجموعة باحثين، ت: إبراهيم خطيب، المؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1982م، ص: 113.
(6) - نجيب محفوظ: التنظيم السرى، ص: 8.
7(7) - المصدر نفسه، ص: 12.
8(8) - نفسه، ص: 18، 19.
(9) - نفسه، ص: 27.
(10) - نفسه، ص: 74.
(11) - نفسه، ص: 75.
(12) - نفسه، ص: 75.
(13) - نفسه، ص: 82.
(14) - نفسه، ص: 94.

(15) - نفسه، ص: 96.
(16) - نفسه، ص: 96.
(17) - نفسه، ص: 97.
(18) - نفسه، ص: 98.
(19) - نفسه، ص: 107.
(20) - نفسه، ص: 38.
(21) - نفسه، ص: 39.
(22) - نفس، ص: 42.
(23) - نفسه، ص: 133.
(24) - نفسه، ص: 140.